17

كايات كليلة ودمنة

الجرذ و السنور

بقلم: أ. عبد الحميد عبد المقصود
بريشة: أ. عبد الشافي سيد
إشراف: أ. حمدي مصطفى

يُحكى أنَّه فى مكانٍ ما كانت تُوجدُ شجرةٌ عظيمةٌ ، هائلةُ الضخامة ..

وأنه تحت هذه الشجرة كان يُوجدُ جحرُ سنورٍ يُطلقُ عليه اسمُ (رومى) .

وأنه قريبًا منه كان يُوجدُ جحرُ جرذٍ يُطلقُ عليه اسمُ (فريدون) .

وكانت بين (رومى) و (فريدون) عداوةٌ شديدةٌ ، منذُ زمنٍ ، فلم يكُنْ أحدهما يُحبُّ الآخرَ ، بل كان يأملُ فى الخلاصِ منهُ .

وكان هذا المكانُ مليئًا بالطيورِ والحيواناتِ ، فكان الصيادون يرتادونه كثيرًا للصيد .

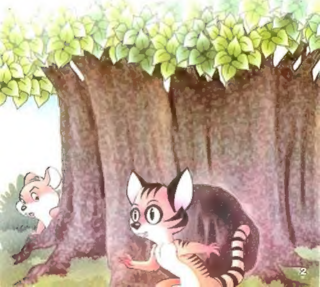

وذات يوم قدِمَ إلى هذا المكان صيّادٌ ماهرٌ ، فنصب شبكتَهُ بالقرب من جُحْر (رومى) ، ثُمّ ذهب لقضاء بعض حاجاته ، حتى يقع فى الشّبكة صيدٌ .

وسُرْعان ما خرج (رومى) من جُحْره ، فوقع فى الشّبكة ، ولَمْ يستطعْ أنْ يخْرُج منها .

وبعْد قليل خرج (فريدون) من جُحْره ، باحثًا عن شىء يأكُلُهُ ، وهُو حذرٌ كُلَّ الحذر من عدوّه (رومى) .

وفجأةً رأى الجرذُ غريمَهُ السنور داخل الشّبكة ، فاستبشر بذلك خيراً ، وقال فى نفسه :

ـ قدْ خلصنى اللهُ منْ عدوّى اللدود إلى الأبد . سرْعان ما يأتى الصيادُ ، فيأخذه ، ويسلخ جلْدَهُ .

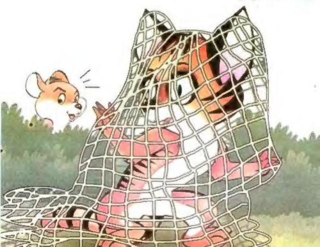

وبينما الجرذُ (فريدون) شاردٌ في خواطره السعيدة هذه ، رأى بومةً واقفةً على غُصْنِ الشجرة ، فخاف منها ، والتفت خلفهُ ليهرُب ، فرأى (ابن عرس) متربصًا به ومُستعدًا لاختطافه ، فخاف الجرذ وقال في نفسه :

– إذا رجعتُ ورائي اختطفني ابن عرس ، وإن تقدمتُ أمامي افترسني السنْور ، وإن ذهبتُ يمينًا أو شمالًا اختطفتني البومةُ .

وهكذا وقف الجرذ المسكينُ متحيرًا في أمره ، وهو لا يدرى ماذا يصنعُ ، وكيف يتصرفُ للخروج من هذه الورْطة ، فقال في نفسه :

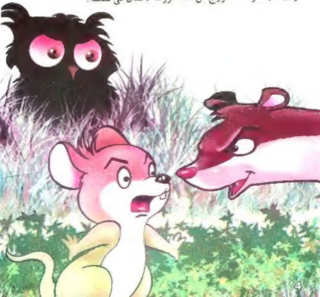

ـ هذا بلاءٌ عظيمٌ قد أحاط ، وشرورٌ كثيرةٌ قد تجمعت حولي ، ومحنٌ كثيرة قد ابتليت بها ، ولكن أحمد الله على أنه أعطاني عقلا ذكيا ، فلا يفزعني شيء ، ولا تقتلني الدهشة ، ولا يتمزق قلبي رعبا من هول كل هذه المخاطر التي تحيط بي ، فالعاقل هو الذي يحسن استخدام عقله في مثل هذه المواقف الخطيرة ، ليخرج من المحنة بسلام .

وبعد تفكير سريع ، قال الجرذ في نفسه :

ـ لست أرى لي مخرجا من هذا البلاء إلا مصالحة السنور ، والاتفاق معه ، حتى وإن كان أعدى أعدائي ؛ لأنه قد نزل به من البلاء مثل ما قد نزل بي .. المهم أن ينصت إلى كلامي ، ويثق أن في نجاتي نجاته ، فيوافق على معاونتي إياه .

وتقدم الجرذ من السنور ، فقال له :

ـ كيف حالكَ أيها الغريمُ القديمْ ؟!

فقالَ السنورُ في ضيقٍ :

ـ في ضنْكٍ وضيق ، وأظنّ أنّ ذلك يسُرُّكَ ..

فقالَ الجرذُ في لهجة صادقة :

ـ كيف أُسَرُّ بذلك ، وأنا الآن شريكك في البلاء ؟! لقد جئتُ إليكَ أعرضُ عليك أن نترك العداوة قليلاً ، حتى ينجو كلانا من هذه المحنة .. وثِقْ أنّني صادقٌ في كلامي ، وأنه لا نجاة لي إلاّ بخلاصك من هذه الشّباك .. من الأفضل أن ننجو معًا بدل أن نهلك معًا .

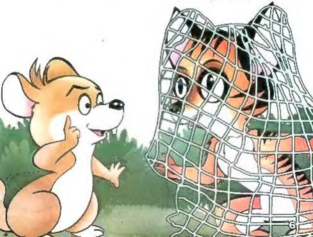

فقال السنور :

ـ ما الذى يدرينى أنك صادق فى كلامك ، وأنها ليست خُدْعةً من خدعك ؟!

فقالَ الجرذ بلهجة صادقة :

ـ إن ابن عُرس كامنٌ لى من الخلف ، والبومةَ متربصةٌ لى من فوْق الشجرة ، فإن أعطيتنى الأمان قرضتُ حبال الشبكة ، وخلصتُك من هذه الوَرْطة .

فلمّا رأى السنور ابن عرس كامنا من خلف الجرذ ، والبومة متربصةُ له فوق الشجرة ، أدرك صدق كلامه ، ورغبته الجادة فى مساعدته ، فقال له :

ـ لقد تحققتُ من صدق كلامك ، أنا أيضا راغبٌ فى الخلاص من هذه الشبكة اللعينة ، فلننبذ عداوتنا جانبا ، ولنتعاهد على أن يساعد كُلٌ منّا الآخر بصدق وإخلاص ، حتى ننجو من هذه المحنة .

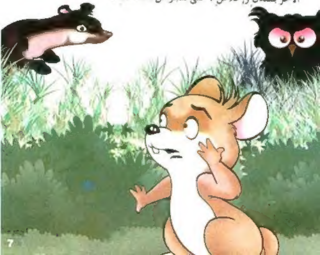

فقال الجرذ :

ـ اتفقنا . . سأدنو منك الآن طالما أنك قد أعطيتني الأمانَ ، وأقرضُ حبالَ الشبكة كلها إلاّ حبلاً واحداً أبقيه ، ولن أقرضهُ إلاّ في اللحظة المناسبة التي أختارُها أنا .

فتعجب السنور وقال :

ـ ولِمَ تترك هذا الحبل دون قرض ، وتبقيني أسيراً بسببه ؟!

فقال الجرذ :

ـ هذا الحبلُ سوف أستبقيه ، حتى أستوثق لنفسي منك .

فقال السنور :

ـ أنتَ وما تحب ، طالما أنك لست واثقاً مني ، حتى بعدَ أن أعطيتك الأمانَ .

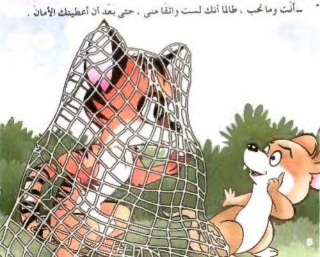

وبدأ الجرذ يعمل فى همّةٍ ونشاطٍ على قرض حبال الشبكة . فلما رأى ابنُ عرس والبومةُ أن الجرذ بدأ فى قرض حبال الشبكة ، يئسَ كُلٌّ منهما من انصرافه ، وابتعد كُلٌّ مُنهما ؛ ليبحثَ عن صيدٍ آخر .

ولما رأى الجرذ أنَّ الخطرَ قدْ زالَ ، أخذَ يتكاسلُ فى قرْضِ حبالِ الشبكة . وأحس السنور بذلك ، فقال له :

ـ ما لى أراك متكاسلاً عنْ قرْضِ حبالِ الشبكة .. هلْ شعرْتَ بالأمان لأن أعداءَك قد رحلوا ، فلا تريدُ أن تُتمَّ العملَ الذى عاهدتنى عليه .. إنْ وعْدَ الحُرِّ دَيْنٌ عليه ، والكريمُ لا يقصِّرُ فى حقِّ صاحبه . فلمْ يردَّ عليه الجرذ بكلمةٍ ،

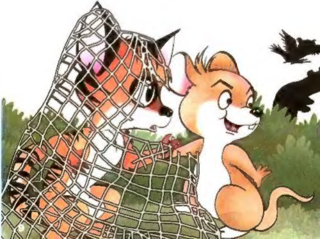

واستمر السنور مذكراً إياهُ بما اتفقا عليه قائلاً :

ـ لقدْ كانَ لكَ فى سابقِ مودّتى من النفعِ والفائدة ما لا تُنكره ، ولهذا فأنتَ مَدينٌ لى ويجبُ أن تخلّصنى من هذه الشبكة اللعينة .. لا تذكر العداوةَ التى كانتْ بينى وبينكَ ، لأن الذى حدثَ بيننا من الصُّلحِ يجب أن يُنسيكَ ذلكَ .

وسكت السنور قليلاً .. ثم استمر قائلاً :

ـ إذا كنتَ قد نويتَ الغدْرَ بى ، فإننى أذكّرُك أن عاقبة الغدر وخيمةٌ ، وأنَّ الكريمَ لا يكون إلاَّ شكوراً غيرَ حقود .. وإنَّ أسرعَ عقوبة هى عقوبة الغدر ، وإن من يتضرَّعُ إليه الناس فى المحنة ، ويسألونه العفو عند المقدرة ، فلم يرحمْ ولم يعفُ هو غادر .

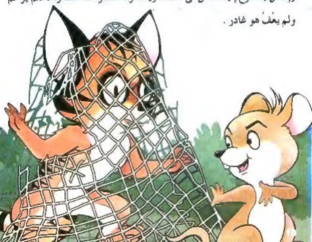

فتكلم الجرذ أخيراً ، وقال بعد طول صمت

ـ إن الصديق نوعان .. صديقٌ طائعٌ مُختار ، وصديقٌ يكون بالاضطرار ، وكلاهما يرجو المنفعة ، ويحترس من المضرة فأما الصديقُ الطائع المختار ، فهو الذي يأمنه المرءُ في جميع الأحوال وأما الصَديقُ بالاضطرار كما هو حالي معك الآن ، ففي بعض الأحوال يأمنُ المرء إليه ، وفي بعض الأحوال يتخذُ حذْره منه ولكن اطمئن فأنا مُوفٍ لك بما قطعتُهُ على نفسي ، من تخليصك من هذه الشبكة . لكنني أيضا محترسٌ منك ، خشية أن يصيبني ما ألجأني إلى مصالحتك ، وألجأك أنت إلى قبول الصلح مني

فقال السنور :

ـ هذا الوفاءُ منك يُحْسَبُ لك فى ميزان حسناتك .

وقال الجرذ :

ـ سوف أمضى فى عملى ، فأقطع الحبال كُلَّها ، إلاَّ عقدةً واحدةً سوف أتركك مربوطًا فيها ، ولا أقطعُها إلاَّ فى اللحظة التى أراك فيها مشغولاً ، حتى لا تقفز علىَّ وتأخذنى ، وذلك عندما أرى الصياد قادمًا نحونا .

وعاد الجرذ يواصلُ عملَهُ فى قرض حبال الشبكة ، حتى ظهر الصياد ، فقال له السنور :

ـ أسرع وإلا أخذنى الصياد

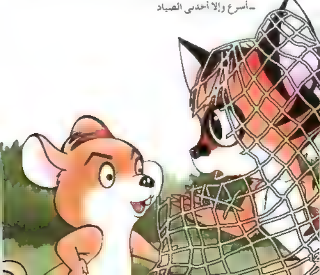

فقال له الجرذُ :

ـ اطمئن .. لم تبْقَ إلاّ آخر عُقْدة .

وفى اللحظة التى وصل فيها الصيادُ قرض الجرذُ العقدة الأخيرة ، فقفز السنور فوق الشجرة ، واختبأ الجرذ فى جُحْره ، والصيادُ ينظرُ بدهشةٍ وذهولٍ إلى شبكته الممزَّقة .. ثم حملها ورحل .

وبعد قليلٍ خرج الجرذ منْ وكره ، وخاف أنْ يقترب من السنور ، فناداه السنور قائلاً :

ـ أيها الصديقُ المخلصُ الناصحُ ، لماذا لا تقتربُ منى ، حتى أجازيك خيراً على ما قدمت لى من معروف ؟!

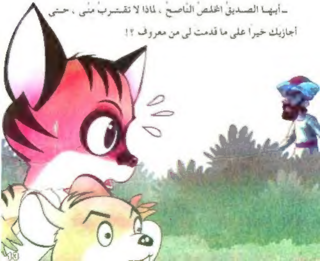

فظلّ الجرذ فى مكانه محاذرًا أن يقترب منه ، واستمر السنور قائلًا :

ـ تعال إلىّ يا أخى ولا تقطع رجائى ؛ لأن من اتخذ صديقًا وقطع رجاءه حُرم ثمرة إخائه ، وبئس من منفعة الإخوان والأصدقاء لبعضهم .

فظل الجرذ واقفًا فى مكانه محاذرًا منه ، ولم ينطق بكلمة ، بينما راح السنور يقسمُ له بأغلظ الأيمان بأنه صادقٌ فى مودته له ، وأنه راغب فى مكافأته على المعروف الذى قدمه إليه . فقال الجرذُ :

ـ رُبّ صداقة ظاهرة ، لكنها تحملُ فى باطنها عداوة كامنة ، وهى أشدّ خطرًا وضررًا من العداوة الظاهرة .. ومن لم يحترس من مثل هذه الصداقة

يكون مثل الرجل الذى يركبُ ناب الفيل الثائر ، ثم يغلبه النعاس ، فيستيقظ ليجد نفسهُ تحتَ أقدام الفيل . فيدوسُ عليه ويقتله .. لقد سُمى الصديقُ صديقًا لما يرجوه المرء من نفعه ، وسُمى العدوّ عدوًا لما يخافه المرء من ضرره .. والعاقلُ هو الذى إذا رجا نفع العدو أظهر له الصداقة ، وإذا خاف ضر الصديق أظهر لهُ العداوة .. لقد زالت الآن صداقتنا ، فاتركنى وشأنى .

وعبثًا حاول السنور أن يقنع الجرذ بأنه صديقٌ له ، وليس عدوًا كما كان فى الماضى .

فقال له السنور ، بعد أن يئس منه :

ـ أنت وما تحب يا أخى ..

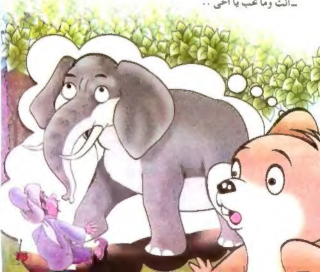

وقال له الجرذُ :

ـ أنا الآن أحبُّ لك من البقاء والسلامة ، ما لم أكن أحبه لك من قبل ، وكل ما أرجوه منك أن تعاملني بمثل ذلك .

فقال السنورُ :

ـ وأنا أرجو لك ذلك .

وهكذا عاد كلٌّ من الجرذ والسنور إلى حياتهما القديمة ، بعد أن جمعت بينهما الصداقةُ في لحظات الخطر .

(تمت)

رقم الإيداع ١٧٣٣٢ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولي ٣ - ٨١ - ٢٦٦ - ٩٧٧